زيارة الأربعين، مَظهر حبّ الله تعالى

■ بقلم: الشيخ حسين كَوْراني

يشترك في تظهير أبعاد العظَمة والجلال في الشعائر الحسينيّة، عوامل مركزيّة، أبرزها:

١) البُعد العقائديّ. حركة العقل والبرهان للاعتقاد بالرسول والمرسِل.

٢) البُعد العاطفيّ الوجدانيّ. حبّ القلب، ثمرة البرهان والتفاعل معها.

***

في البُعد العقائديّ: الشعائر الحسينيّة محمّديّة. سِرُّها والجوهر، هذا الاتّصال بسبط سيّد النبيّين. قال **صلّى الله عليه وآله:** «**حُسَينٌ مِنّي وَأَنَا مِنْ حُسَين**».

الاتّصال بالرسول، وصولٌ إلى المرسِل. تقلّب الوجه في الساجدين في ميادين ﴿.. وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟ ..﴾.

الشعائر الحسينيّة المحمّديّة إلهيّة.

فعلٌ استراتيجيّ، يهدف إلى توحيد القلوب في سياق عولَمة توحيد الله: ﴿.. لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ ..﴾.

***

في البُعد الوجدانيّ: لا ينفكّ البُعد العقائديّ عن حركة القلب في خطّ العقل. هذه الحركة المُعَقْلَنَة هي العقيدة. هذه الحركة هي الحبّ. خلافها «وَهْمُ الحبّ».

قال الإمام الباقر عليه السلام: «**وهَل الدِّينُ إلّا الْحُبُّ؟ قَالَ اللهُ تَعَالَى:** ﴿..حَبَّبَ إِلَيْكُمُ ٱلْإِيمَٰنَ وَزَيَّنَهُۥ فِى قُلُوبِكُمْ..﴾، **وقَالَ:** ﴿..إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ ..﴾، **وقَالَ:** ﴿..يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ ..﴾».

يتجلّى هذا البُعدان - العقائديّ والوجدانيّ - في الشعائر الحسينيّة بالتنقُّل من الذِّكر والفكر، والحرارة في القلب، والمعرفة المكتومة إلى اللَّهَج، والدّمعة، والنَّشيج والنَّحيب، والجَزَع بلا حدود، والتوثُّب في ساحات «**يَا لَيْتَنَا كُنَّا مَعَكَ**»، وصولاً إلى لقاء الله بتاج الشهادة، وأوسمة السعادة.

العقلُ يَعْقِلُ. القلبُ يُحِبّ.

بالعقل يتبيّنُ الخيطُ الأبيض من الخيط الأسود من فجر الحبّ. يمتازُ الصادقُ منه عن الكاذب.

***

في الحبَّين - الصّادق والكاذب - هوى نفس: ما أمضاه العقلُ فهو الصادق. ما أَنكَره العقلُ هو الكاذب.

معياريّة العقل هي المائزُ بين الحبّ ووَهْم الحبّ. بين الهوى المشروع والإنسانيّ، وبين الهوى العبثيّ الغرائزيّ الأعمى.

تَحجب الشهوات الفرق بين «**الهدى**» و«**الهوى**». يَضيع الحدّ الفاصل بين الحبّ ووَهْمه السَّراب. قد يُحبّ الجاهلُ هلاكَه وهو لا يدري. لو عرف لَما أحبّ. «**قَدْ يَدْعُو المَرْءُ بِقَطْعِ وَتِينِه**».

***

العقيدة المنفصلة عن التفاعل والودّ وعَصْف الحبّ، وتلاطُم بحار العشق والوَلَه، وهْمٌ عقيدة. لا عقد فيها و﴿..لَّا بَيْعٌ فِيهِ وَلَا خُلَّةٌ وَلَا شَفَٰعَةٌ ..﴾.

يُحكم العقلُ قواعدَ العقيدة، ويُتقن تَشييدها. يتلقّاها القلبُ بفَيض الحبّ، فتنتظمُ الجوانحُ والجوارحُ في مسار الحبّ العاقل: ﴿..يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ ..﴾.

الدِّين هو الإنسانيّة. ﴿.فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا ..﴾.

الإنسانيّة عقلٌ وقلب. قناعةٌ وإحساس. التزامُ القلب حدودَ العقل يضبطُ إيقاعَ الإحساس.

أدنى تخلُّفٍ عن هذا الالتزام، تأسيسٌ للإحساس الغرائزيّ المتفلّت من منظومة الحقوق والقِيَم.

يعادل هذا التخلّف - بِحَسَبه والنّسبة - غلبةَ هوى النفس للعقل. يعادل جموحَ الغرائز، واستشراء الحيوانيّة. وصولاً إلى ﴿..بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا ﴾.

﴿.. أَفَكُلَّمَا جَآءَكُمْ رَسُولٌۢ بِمَا لَا تَهْوَىٰٓ أَنفُسُكُمُ ٱسْتَكْبَرْتُمْ فَفَرِيقًا كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقًا تَقْتُلُونَ ﴾.

﴿..كُلَّمَا جَآءَهُمْ رَسُولٌۢ بِمَا لَا تَهْوَىٰٓ أَنفُسُهُمْ فَرِيقًا كَذَّبُوا۟ وَفَرِيقًا يَقْتُلُونَ ﴾.

﴿..إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَمَا تَهْوَى ٱلْأَنفُسُ ۖ وَلَقَدْ جَآءَهُم مِّن رَّبِّهِمُ ٱلْهُدَىٰٓ﴾.

***

على قاعدة الحبِّ العاقلِ أرسى القرآنُ قواعدَ اليقين، وشِرْعةَ الاستقامةِ والصلاح، ومنهاجَ الإصلاح:

١) ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ ٱللَّهِ ۖ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ ..﴾.

٢) ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾.

٣) ﴿قُلْ إِن كَانَ ءَابَآؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ وَإِخْوَٰنُكُمْ وَأَزْوَٰجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَٰلٌ ٱقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَٰرَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَٰكِنُ تَرْضَوْنَهَآ أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَجِهَادٍ فِى سَبِيلِهِۦ فَتَرَبَّصُوا۟ حَتَّىٰ يَأْتِىَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ﴾.

***

الاعتقادُ بالله واجب. حبُّ الله أوجب. الوصالُ في هذا الحبّ الأوجب رهن أصلَين:

١) **حبُّ الرسول والعترة.** قال رسول الله صلّى الله عليه [وآله] وسلّم: «**لا يُؤْمِنُ عَبْدٌ حَتّى أَكُونَ أَحَبَّ إِلَيه مِنْ نَفْسه، وَتَكُونَ عِتْرَتي أَحَبَّ إِلَيه مِنْ عِتْرَته، وَذَاتي أَحَبَّ إِلَيه مِنْ ذَاته، وَيَكُونَ أَهْلي أَحَبَّ إِلَيه مِنْ أَهْله**».

(البيْهقيّ: شُعب الإيمان، ١٨٩/٢).

٢) **لا يجتمعُ حبُّ الله مع شَوْب الأغيار. يتضمّنُ هذا الأصل قاعدتَين:**

أ) أنّ القلب حَرَمُ الله فَلا تُسْكِنْ حَرَمَ الله غَيْرَ الله.

ب) أنّ حبّ الرسول والعترة فرعُ حبِّ الله، لا حبَّ على نحو الأصالة والاستقلال غير حبِّ الله: لَا إِلَهَ إِلّا اللهُ. لا وَلَهَ إِلّا إليه. ولا يُعْبَدُ سِواه. الحُبُّ المُتَمَكِّنُ وَلَهٌ وعبادة.

***

على هذا التأسيس القرآنيّ للدِّين الحبّ، دارت القرون، وتعاقبت الأجيال. كانت شجرةُ حُبِّ الله تُؤتي أُكُلَها بإذن ربّها في كلّ قلبٍ تعاهدها بالوفاء بالميثاق، والاستقامة، لتُثمر لينَ القلب والحنان والحنين، وتزهر توسُّلاً، والتماسَ شفاعة.

لم ينكر حصريّة حبّ النبيّ والعترة في بلوغ الرشد في حبّ الله، والوصال. لم ينكر الحنين إلى المعصوم، والتوسّل والشفاعة، إلّا ﴿..وَٱلشَّجَرَةَ ٱلْمَلْعُونَةَ فِى ٱلْقُرْءَانِ ..﴾. بنو أميّة ومتفرّعاتهم من ابن تيميّين، ووهّابيّين، وآل سعود ودواعشهم.

مَن يدافع عن يزيد ويتحامل على الحسين السِّبط، لا يُمكنه أن يحبّ رسول الله. مَن لا يحبّ الرسول، محالٌ أن يهتدي إلى المرسِل فضلاً عن أن يحبّه أكثر من كلّ حبّ.

مَن لم يَعمر الحبُّ قلبَه، قسا قلبُه وتحجّر: ﴿ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ فَهِىَ كَٱلْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً ۚ وَإِنَّ مِنَ ٱلْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ ٱلْأَنْهَٰرُ ۚ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَشَّقَّقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ ٱلْمَآءُ ۚ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ ۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾.

***

هل عرفتَ السبب في كلّ هذا التوحّش، من شقّ صدر الحمزة عمّ النبيّ، إلى آخر نقطة دمٍ سُفكت بأيدي التحالف الصّهيو-ديّ، في ليبيا، أو كلّ بقاع الأرض؟

هل عرفتَ سرّ ضراوة القصف السعوديّ في اليمن؟ إنّها قلوبٌ تنكّرت لإجماع الشيعة والسُّنّة على أنّ الدّين هو الحبّ. لم تَذُق حلاوةَ حبِّ الله. لم يُليّنها حبُّ النبيّ والعترة. لم تروّضها الشعائر الحسينيّة، فتوحّشت، وهي تفتخر بـ«إدارة التوحُّش».

***

تراقب البشريّة في عصر الإنترنت والفضائيات، مشهدَين:

١) مشهد تجليّات حبّ الله تعالى في اللّهَف إلى سيّد النبيّين، والترنُّم مدائحه والطَّرب في تعداد مناقبه، وحبّ كلّ ما أمر **صلّى الله عليه وآله** بحبّه، وبذل الجهد والمُهجة في دروبه، وبالخصوص مجالس الحسين، وزياراته عليه السلام، وأهمّها تظاهرات زيارة الأربعين العالميّة الحاشدة، والظاهرة.

٢) تعابير الحقد الأرعن، والبطش والتنكيل، وقطع الرؤوس بالفؤوس، وشقّ الصدور على وقع التغنّي بأبي سفيان وآله والدفاع عنهم، وتكفير جميع المسلمين، والتحامل على الحسين وأخيه وجدّه وأمّه وأبيه.

هل سيطولُ انتظارُ النتائج؟ كلُّ الدلائل ترجّحُ اقترابَ الوعد الحقّ.

ألخسفُ يأتي بغتةً. ﴿فَخَسَفْنَا بِهِۦ وَبِدَارِهِ ٱلْأَرْضَ ..﴾. ﴿..بُعْدًا لِّلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾.